أثر عدواني لبنان وغزّة على وجود إسرائيل

الدكتور محمد شقير

شنت اسرائيل حرباً عدوانية على لبنان في تموز من العام 2006م، ثم شنت عدواناً مشابها على غزّة في نهاية 2008 استمر إلى بدايات 2009م، ويمكن القول إن ميزات عديدة جمعت بين هاتين الحربين على لبنان وغزّة، لكن من أهم الميزات المشتركة بينهما؟

أولاً: أن الجبهة الداخلية للكيان الاسرائيلي لم تعد بمنأى عن ساحة المواجهة.

ثانياً: مستوى العنف والإجرام الاسرائيليين، والوحشية التي لا تفرق بين طفل وامرأة وغيرهما.

وهنا سوف أقف عند ارتدادات هاتين النقطتين على الأمان والاستقرار الوجودي للكيان الاسرائيلي وتأثيرهما على المجتمع الاسرائيلي على مختلف المستويات النفسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

فيما يرتبط بالنقطة الأولى، يمكن القول إنه بعد مرحلة انشاء الكيان الاسرائيلي والعقود التي تلتها، فإن الجبهة الداخلية للكيان الاسرائيلي لم تشهد تهديداً كما شهدته في السنوات الأخيرة في حربي لبنان وغزّة، حيث لم تعد المدن والبلدات الاسرائيلية بعيدة عن ميدان المواجهة، حتى تلك التي تقع في عمق الكيان الاسرائيلي، بل يمكن القول إن هذا التهديد للجبهة الداخلية الاسرائيلية يتحرك بشكل تصاعدي سواء على مستوى مدى الصواريخ، أو

على مستوى كثافتها أو على مستوى قدراتها التدميرية وبالتالي سوف تصل الأمور إلى حد أنه لن يبقى في إسرائيل مكان آمن يشعر فيه أي إسرائيلي أنه يمكن أن يعيش حياة هادئة وهانئة بعيداً عن أن تصيبه صواريخ المقاومة في حياته وأمواله وكل مستقبله، وهو ما سوف يؤدي إلى تسلل الخوف والقلق، والذي إن تفاقم قد يصل إلى حالة من رهاب المحيط وعدم الشعور بالأمان تجاه المستقبل، والذي قد يدفعه إلى التفكير بخيارات بديلة عن تلك التي ترتبط بمستقبله في هذه المنطقة.

بمعنى آخر فإن شرائح من المجتمع الاسرائيلي سوف تجد نفسها أنها غير مضطرة أن تعيش في مكان تتهدده الحروب في كل يوم، حيث تثبت التجارب أنه لا يمكن القضاء على المقاومة ولا تطويعها بل تزداد قوتها يوماً بعد يوم، فقد استطاعت إسرائيل وعلى مدى عقود أن تحيّد جبهتها الداخلية عن ساحة الحرب لكن منذ سنوات فإن هذه الجبهة تنزلق أكثر فأكثر إلى حلقة النار.

ولذلك فإن هجرة معاكسة من الكيان الإسرائيلي إلى أوروبا وأميركا سوف تكون ننتيجة طبيعية لدخول تلك الجبهة أكثر فأكثر في دائرة النار، بل إن العديد من الرساميل والأموال سوف تجد أن الكيان الاسرائيلي لم يعد ذلك المكان المناسب لوجودها، لأن الأموال والرساميل لا تستطيع العيش في بيئة مضطربة أو مهددة بشكل دائم بالحروب، حيث لا تشعر بالأمن والأمان على وجودها ومستقبلها.

أما فيما يرتبط بالنقطة الثانية، فلا بد من القول إن المشروع الصهيوني عندما قام في المنطقة فإن من جملة ما قام عليه نوع من التبرير الأخلاقي الذي يجعل من تاريخ اليهود

واضطهادهم قضية ذات بعد أخلاقي وانساني تبرر – حسب زعمهم– انشاء دولة لليهود تحميهم من الاضطهاد والقهر والظلم.

هذه القضية اسهمت في تحفيز اليهود على المجيء إلى فلسطين، وانشاء الكيان الاسرائيلي، والعمل على دعمه والقتال من أجله، والدخول في حروب عديدة أدّت إلى نشوء هذه الأوضاع الجديدة في المنطقة.

وعندما تبادر إسرائيل إلى ارتكاب المجازر تلو المجازر، وإلى استخدام تلك القوة المفرطة التي لا تفرق بين مدني وغيره وإلى ممارسة ذلك القدر من همجية القوة والتدمير الشامل، فسوف يكون لهذا الأمر مفاعيله فيما يرتبط بذلك البعد الأخلاقي للقضية التي قام عليها المشروع الصهيوني.

إن العالم– بما فيه بعض من المجتمع الاسرائيلي– عندما يشاهد صور الدمار الهائل وصور أشلاء الأطفال وجثث المدنيين تحت الركام، لا بد أن يتساءل حول المبررات التي تستدعي كل تلك الأعمال التي يقوم بها الكيان الاسرائيلي، ولا بد أن يؤدي ذلك إلى تغيير الرأي العام العالمي لرؤيته تجاه إسرائيل وتالياُ الموقف منها والذي سوق يقود إلى طرح جملة من الأسئلة حول القضية التي يقوم المشروع الصهيوني عليها.

فضلاً عن أن انفلات القوة الذي تمارسه إسرائيل سوف يدفع كل حركات المقاومة إلى المزيد من صناعة القوة وهذا ما يمكن لحاظه بقوة منذ ثلاثة عقود إلى الآن.

إن تراكم الارتكابات والمجازر التي تقوم بها إسرائيل سوف يكشف يوماً بعد يوم حقيقة ذلك الكيان العدوانية، وميله المفرط والمرَضي إلى العنف، وتنافيه مع القيم الإنسانية والأخلاقية، وهو ما يعمل على تذويب أي بعد أو أساس أخلاقي قام عليه المشروع

الصهيوني، وقام عليه الكيان الإسرائيلي في المنطقة، مما يؤدي في الحد الأدنى إلى تآكل تلك القضية التي قام عليها ذلك المشروع في بعدها الأخلاقي المزعوم، وإلى ضعف الشعور بعدالة تلك القضية، عندما يرى أن آلته الحربية الضخمة لم تعد إلا وسيلة لقتل الأطفال، وإبادة عائلات بأكملها، وتسجيل أفظع صور المآسي والجرائم الإنسانية، وارتكاب المجازر بحق المدنيين، وتدمير البيوت والأحياء على رؤوس ساكنيها.

إن أي فرد إسرائيلي إذا ما كان حريصاً على البقاء في إسرائيل فلأحد أمرين:

فإما أن تكون هناك قضية عادلة وأخلاقية تستحق أن يبقى ويضحي من أجلها، أو أن تكون إسرائيل تلك الجنة التي توفر له عيشاً رغيداً ومستقبلاً واعداً له ولأسرته؛ أما إذا كان انزلاق إسرائيل إلى جنون القوة سوف يؤدي إلى تهديد الجبهة الداخلية بشكل جدّي ودائم من جهة، وإلى تهشم الأخلاقية المزعومة للقضية الصهيونية من جهة أخرى، فعندها لن يبقى لدى الفرد الإسرائيلي ذلك التعلق والارتباط بكيانه وقضيته كما كان عليه الحال في مرحلة تشكيل هذا الكيان والعقود القليلة التي تلته وهو ما يمكن أن يتبدى في تدني مستوى الهجرة اليهودية إلى فلسطين بل في هجرة معاكسة منها إلى مختلف بلدان أميركا وأوروبا وغيرهما، كما في هجرة الرساميل إلى أسواق أكثر أماناً؛ وفي ضعف الإرادة القتالية لدى الجندي الإسرائيلي، وفي ازدياد منسوب القلق والخوف الوجودي وفي غيرها من المظاهر...

إن ظواهر عديدة سوف تظهر أكثر في القادم من الأيام لتعكس تناقص الأمل لدى المجتمع الإسرائيلي بمستقبله في المنطقة، وبداية فقده لشعوره بالأمان الوجودي، وبداية انفكاكه عن كيانه وقضيته.

إن حربي إسرائيل على لبنان وغزة– رغم قساوتهما– فقد شرعتا الباب في المنطقة على مسار سيكون له من التداعيات والمفاعيل ما يمس بأساس وجود إسرائيل وبقائها في المنطقة.

لقد اختبرنا في لبنان مقولة أن قوة لبنان في ضعفه، وتبين زيف هذه المقولة، لكن هل يمكن القول إن ضعف إسرائيل كان في قوتها، بمعنى أن القوة إذا ما كانت بيد عدوانية وعقلية متعالية، فإن ذلك سوف يؤدي إلى تردي تلك القوة، وإلى انتاج أسباب ضعفها؛ وإن قراءة في الحروب الإسرائيلية الأخيرة وخاصة حربي لبنان 2006– وغزة 2008 قد تقودان إلى هذه النتيجة؛ أن إسرائيل قد بدأت تحفر قبرها بآلتها العسكرية المتعاظمة.